الفصل الثانى

العِبَـــادة

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١).

وإذا أراد الإنسان أن يذكر كل التفصيلات التى وضح بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذه الآية الكريمة لتوجيه الإنسان للتحقق بها ، فإنه يحتاج إلى كثير .

لقد أراد الإسلام أن يصيِّر الحياة ـ فى شكلها وجوهرها ـ إلى عبادة، وليس معنى ذلك أن كل إنسان يلزمه أن يعتكف فى المسجد عابداً، وإنما معنى ذلك أن كل ما يأتيه الإنسان وكل عمل يدعه الإنسان يجب أن يتوافر فيه أمران :

الأول: أن يصدر فى العمل أو فى الترك عن الدين قرآناً أو سنة.

الثانى : أن يريد بعمله ـ أو بتركه ـ وجه الله .

فإذا ما كان الأمر كذلك كان عبادة.

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام البخارى :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ».

إن هجرة الإنسان بعمله إلى الله، أى : إرادته بعمله وجه الله، يجعل من عمله عبادة يُؤْجَر عليها ويثاب.

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦.

أما من كانت هجرته بعمله ـ أى : إرادته به ـ لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته، أى : عمله المترتب على إرادته، إنما هو عمل دنيوى لا أجر عليه ولا ثواب، حتى ولو كان العمل يتفق فى مظهره مع الأعمال الصالحة .

والحديث التالى له مغزاه العميق فى الدلالة على ما نريد إيضاحه :

روى الإمام مسلم رضي الله عنه عن أبى ذر رضي الله عنه أن ناساً قالوا :

« يا رسول الله: ذهب أهل الدثور[1] بالأجور ، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال : **أوَ ليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون به، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة، وفى بُضْع أحدكم صدقة** . قالوا: يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟. قال: **أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وِزْرٌ ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر** ».

ويقول صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الإمامان البخارى ومسلم رضي الله عنهما ـ عن أبى هريرة، وعن عائشة رضي الله عنهما :

فعن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أصحاب الثراء .

« كل سُلامَى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة ».

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت : قال رسول الله ﷺ :

« إنه خُلِق كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل ، فمن كبَّر الله ، وحمد الله ، وهلَّل الله ، وسبَّح الله ، واستغفر الله، وعزل حجراً أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن المنكر عدد الستين والثلاثمائة؛ فإنه يمشى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار ».

ولقد بدأ هذا التوجيه لجعل الحياة عبادة ، منذ اللحظة الأولى التى اتصلت فيها السماء بالأرض عن طريق محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أى : بدأ هذا التوجيه منذ:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾[1].

إن الرسول ﷺ ـ والمسلمون معه يقتدون به ـ قد وجهوا منذ اللحظة الأولى ، لأن تكون القراءة باسم الله ، أى : لتكون القراءة عبادة.

---

(١) سورة العلق : ١.

ثم وُجِّهوا إلى أن لا يأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، فما لم يذكر اسم الله عليه فسق:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ (١).

وما ذُبح على النُّصُب أيضاً فسق يحرم الأكل منه، وكذلك ما أُهِلَّ لغير الله به:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) .

ولقد ألف أسلافنا كتباً فى « عمل اليوم والليلة » بينوا فيها كيفية عبادة المسلم ـ دعاء كانت أو ذكراً ، فرضاً من الفروض أو نفلاً من النوافل ـ فى كل فترة من فترات اليوم والليلة، ولقد بينوا الاتجاه إلى الله فى التجارة والزراعة، فى المعمل والمصنع، فى المأكل والمشرب، فى دخول البيت وفى الخروج منه، فى الذهاب إلى المسجد، وفى

(١) سورة الأنعام : ١٢١ .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

دخـول المسجـد، وفى المسجـد، وعند الخـروج من المسجـد، وعند التحلى بالملابس الجديدة، وعند رؤية الهلال.

وبالجـملة : فى القول والصمت ، فـى الحركة والسكون ، فى النوم واليـقظة ، ويريد أسلافنا رضى الله عنهم من ذلـك أن يرشدوا المسلمين إلى الكيفية التى كان بها رسول الله ﷺ ،والتى يعبر عنها القرآن الكريـم حينما يقـول الله تعالى مـوجهاً الخـطاب إلى رسوله ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾(١).

وقد جـعل الله طريق القرب إليه فى أداء الفـرائض له ، وجعل طريق حبه للعبد فى الإكثار من النوافل:

يقول رسول الله ﷺ - فيما يرويه عن ربه -:

« مَنْ عادَى لى ولياً فـقد آذنته بالحرب ، وما تقـرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افتـرضت عليه ، وما يزال عـبدى يتقـرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبـه ، فإذا أحببـته كنت سمعـه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبـصر به ، ويده التى يبطش بهـا ، ورجْله التى يمشى بهـا ، وإن سـألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه ... »(٢).

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) رواه البخارى .

والأولياء الذين آذن الله بالحرب من عاداهم ، هم :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[1].

والتقوى تؤول فى النهاية إلى أن لا يعمل الإنسان عملاً ولا ينتهى الإنسان عن عمل إلا وهو مُراعٍ لله فى الإيجاب والسلب، طالباً رضاه فى كل منهما ، أى : من كانت حياته عبادة.

والأساس فى القرب من الله، الأساس الذى بدونه لا يكون الرضا من الله ولا القرب منه فى أى درجة من درجات القرب، إنما هو : أداء الفرائض .

ثم تكون درجة حب الله للعبد بالإكثار من النوافل ، ونافلة شهادة أن لا إله إلا الله إنما هى الذكر.

ونافلة شهادة أن محمداً رسول الله إنما هى الصلاة على رسوله، وللصلاة نوافلها.

وللزكاة نوافلها، وهى الصدقة بجميع أنواعها : صدقة الوقت ، وصدقة الجاه ، وصدقة المال، وصدقة القول، وصدقة الذكاء، وصدقة كل نعمة أنعم الله بها على العبد ، وهى الإنفاق من النعمة.

وللصوم نفله : ومنه الصوم عن اللغو ، والصوم عن الباطل، كما أن هناك الصوم النفل المعروف.

---

(١) سورة يونس : ٦٣ .

وإذا كانت الواجبات والفروض محدودة محددة فإن النوافل لا حدود لنهايتها ، اللهم إلا أن تكون حدود الاستطاعة الإنسانية.

ولقد كان الرسول ﷺ قدوة فى كل ذلك، كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه :

روى الإمامان البخارى ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه. فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال :

« أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ ».

وكان رسول الله ﷺ جواداً ، ولقد كان أجود الناس على العموم، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يعارضه جبريل عليه السلام القرآن ، فلرسول الله ﷺ حينئذ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وكثرة صيام رسول الله ﷺ معروفة مشهورة .

وإذا كانت العرب قد وصفت رسول الله ﷺ قبل البعثة بأنه قد عشق ربه ؛ وذلك لما رأته من كثرة عبادته وتحنثه وخلوته ، فإن هذا الوصف بعد البعثة أصدق عليه ﷺ .

ورسول الله ﷺ إنما هو التطبيق الواقعى للمبادئ الإسلامية،

إنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الصورة الواقعية كأكمل ما تكون لقوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

وهذه الصورة الواقعية هى النموذج الذى احتذاه ويحتذيه مَنْ وطَّن العزم على أن يسلم وجهه لله حقاً.

والواقع أن تناسق العبادة مع إسلام الوجه لله وانسجامها ، بديهى إلى درجة أن مفهومها عندما تصبح العبادة عبودية فعبودة ، يكاد يلتقى ويتحد.

ومهما يكن من شىء فإنه كلما تعمق الإنسان فى عبوديته لله عن طريق كثرة عبادته؛ كان إسلام وجهه لله أكمل فأكمل .

ومن أجل أن يستحث الإنسان الخُطَى إلى الحضرة الإلهية فى شوق وفى تحمس ، ومن أجل أن ينشط هؤلاء الذين ينتابهم الفتور أحياناً، ومن أجل بيان النتائج التى رتبها الله على الطاعات وعمل الخير ، فإنه سبحانه أوضح فى كثير من الآيات والأحاديث رعايته سبحانه وعنايته بمن يتجهون إليه عابدين متبتِّلين .

والقاعدة العامة، ما رواه البخارى عن أنس، عن النبى ﷺ ـ فيما يرويه عن ربه عز وجل ـ:

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦.

« إذا تقرَّب العبد إلىَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإذا تقرَّب إلىَّ ذراعاً تقرَّبت منه باعاً ، وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة » .

ويبدأ السير إلى الله تعالى بالاستغفار المخلص النصوح ، فإذا كان الاستغفار كان ما رتبه الله سبحانه عليه :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾(١) .

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

فإذا ما كانت التوبة :

فـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾(٣) .

والإيمان الصادق، أى : الإيمان المتضمن للعمل الصالح سبب فى النجاة .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤) .

والنصر حليف من ينصر الله :

---

(١) سورة نوح : ١٠ ـ ١٢ .
(٢) سورة هود : ٥٢ .
(٣) سورة البقرة : ٢٢٢ .
(٤) سورة يونس : ١٠٣ .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[2].

والسعادة يمنحها الله للإنسان بشرطين :

١ـ الإيمان.

٢ـ العمل الصالح.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً[3] وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[4].

والتقوى سبب فى الخروج من كل ضيق وحرج ، ومن كل مأزق، ومن كل هم وغم ، وسبب فى سعة الرزق.

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ۝٣ ﴾[5].

أما من يتوكل على الله فإن له فى الله الكفاية :

---

(١) سورة الحج : ٤٠

(٢) سورة محمد : ٧ .

(٣) أى : السعادة.

(٤) سورة النحل : ٩٧.

(٥) سورة الطلاق : ٢ ، ٣.

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(١).

والذكر أو التسبيح له أثره فى الإنقاذ والنجدة :

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤٤) ﴾(٢)

والجماعات والقرى إذا آمنوا واتقوا فتح الله عليهم رحمته نازلة من السماء ونابعة من الأرض :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾(٣).

أما أولياء الله ـ وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون ـ فإن البشريات والرحمات والبركات تتوالى عليهم فى الدنيا والآخرة :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾(٤).

وإذا أردت أن تعرف رعاية الله للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، فإن الله سبحانه يقول:

---

(١) سورة الطلاق : ٣.

(٢) سورة الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤.

(٣) سورة الأعراف : ٩٦.

(٤) سورة يونس : ٦٢ ـ ٦٤.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

والأحاديث النبوية غاصَّة بألوان من العبادات قد رتب الله عليها نتائج من رعايته .

ونتبين من كل ما كتبناه سابقاً أن العبادة عنصر من عناصر شخصية المسلم ، ولن يتأتى الزعم بأن شخصية المسلم تتحقق دون عنصر العبادة، وكلما اتجه المسلم بحياته إلى أن تكون عبادة؛ حقق ـ في صورة أكمل ـ الشخصية الإسلامية.

❑❑❑

(١) سورة فصلت : ٣٠ ـ ٣٢.